

٤ - إنَّ قرن الأقوال والأفعال بالبسملة والتسمية أدب توحيدي يليق بالله

سبحانه فقط

الإيضاح الرابع: لقد عرفنا مما تقدم أنَّ مبنى أدب قرن الأقوال والأفعال باسم الله سبحانه هو أنها مقرونة به تكويناً، وبذلك يكون هذا القرن إذعائاً بحقه ومستتبعاً لبركة الفعل والقول.

وبذلك يتبين أنَّ هذا الأدب أدب توحيدي يليق بالله سبحانه فقط بالنظر إلى كونه الخالق الصانع الذي هو صاحب الوجود والموجودات كلها والذي يسُنُّ سننها ويهيمن عليها، وليس هذا الشأن لأحدٍ غيره.

نعم، قد وظَّف الله سبحانه بعض خلقه حسب ما اقتضته حكمته وصفات جلاله بفعلِ أمورٍ مهيمناً على من وظَّفه وعلى تلك الأمور جميعاً مثل توفِّي الأنفس^(١) وإعانة المؤمنين^(٢) وإنزال الرسالات الإلهية على الأنبياء^(٣) وغير ذلك

(١) لاحظ مثلاً: سورة الأنعام: آية ٦١، قال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾.

(٢) لاحظ مثلاً: سورة فصلت: آية ٣١، قال سبحانه: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾، وسيأتي ذكر آيات أخرى.

(٣) قال تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ سورة النحل: آية ٢، وقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ

مما جاء في القرآن الكريم، ولكن هؤلاء إنما هم جنود له في ما يشاء وحيث يشاء ويأذن، ولا ولاية لهم على شيء مما يفعلوه، بل هم إنما يعملون وفق نظام إلهي خُط لهم أو إيعاز إلهي خاص إليهم، ولو شاء لفعل سبحانه وتعالى كل ما يريد تحقيقه بنفسه أو استبدل بمن عينه غيره، كما قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(١)، وقال عز من قائل في سورة الأنفال: ﴿إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِالْفِئَةِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

فالمراد بالآيتين والله أعلم أن الله أرسل ملائكة لإمداد المؤمنين ليشعروا بكثرة عددهم بالمقارنة مع عدد العدو، فيؤدي ذلك إلى اطمئنانهم بالنصر، لأن زيادة عدد المقاتلين تؤثر على ثقتهم بأنفسهم و بانتصارهم بالحرب، وإلا فإن النصر إنما هو من عند الله سبحانه.

رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة فاطر: آية ١، وقال عز من قائل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سورة الحج: آية ٧٥.

(١) سورة آل عمران: آية ١٢٥-١٢٦.

(٢) سورة الأنفال: آية ٩-١٠.

وليس كل فعل لله سبحانه فهو يجري من خلال كائن آخر يتصدى له بأمره سبحانه، إذ قد علم بضرورة الدين ودلالة واضحة من القرآن الكريم أن الله سبحانه يمارس أعمالاً مباشرة:

منها: خلق الكون والكائنات جميعاً حيث امتدح نفسه بذلك، ولم ينسبها إلى أي وسيط كما نسب إليهم سائر الأفعال المتقدمة^(١)، وهذا بالرغم من ذكره لخلق الكون والكائنات مئات المرات فهو المتفرد بالخلق ببداية من الدين، كما كان موضع إقرار المشركين، وعليه ارتكز القرآن الكريم منذ أول سورة نزلت منه - وهي سورة العلق - في إثبات ربوبيته للخلق واستحقاقه حصراً للعبادة، وقد أكد ذلك - أي خلقه سبحانه الأشياء - بشكل واضح في شأن خلق (آدم) (عليه السلام) حيث قال تعالى لإبليس بعد امتناعه عن السجود لآدم: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيٍّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾^(٢)، والمراد بذلك زيادة الاستهجان لامتناع إبليس من السجود لآدم، وذلك أنه لو كان آدم مخلوقاً من قبل غير الله سبحانه لكان في الامتناع من السجود له امتناعاً من الخضوع لخالقه وهو

(١) حيث نسبها طوراً إلى الملائكة وطوراً آخر إلى نفسه، فقد أسند الوفاة إلى الملائكة كما تقدم، وأسندها إلى نفسه فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ﴾ (سورة الزمر: آية ٤٢)، وأسند إنزال الكتاب إلى الملائكة كما تقدم، وأسندها كذلك إلى نفسه كما قال جل جلاله في سورة المائدة: آية ٤٤: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ وغيرها.

(٢) سورة ص: آية ٧٥.

غير الله، أما الخالق هو الله سبحانه فالسجود له بأمره سبحانه خضوع لله نفسه الخالق لإبليس، فهل يستكبر في مقابل الله سبحانه!

ومنها: الكلام المحكي في القرآن الكريم عنه سبحانه مثل خطابه للملائكة ولإبليس في قصة خلق آدم، وكذلك ما جاء من تكلمه تعالى مع بعض الأنبياء كآدم (عليه السلام)، وكذلك النبي موسى (عليه السلام) الذي تكرر التصريح بتكلم الله سبحانه معه حتى عُرف بـ(كليم الله)، بينما بعث إلى آخرين من الأنبياء لعيسى (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) رسولاً، ولذلك اختلفت طرق إرساله سبحانه الرسل إلى الخلق كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾^(١).

وهذه إشارة عابرة حول الفعل المباشر وغير المباشر لله سبحانه في القرآن الكريم، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك في موقعه.

إذاً الله سبحانه هو الذي يليق به أدب البسملة حصراً، فالابتداء باسم الله في القرآن الكريم توجيه إلى التوحيد في البسملة وردع عن البسملة باسم غيره سبحانه أو عن إشراك غيره فيها.

(١) سورة الشورى: آية ٥١، ولاحظ سورة البقرة: آية ٢٥٣.

هذا، وقد سرى الشرك الطارئ في بعض الأديان الإلهية إلى البسملة، كما ذكر أنّ البسملة عند النصارى هي بسم الأب والابن وروح القدس^(١).

وكان ابتداء السور بالبسملة والتأسيس لهذا الأدب صيانة للمسلمين عن مثل هذا الشرك ومظاهره، إلا أنه بالرغم من ذلك فإنّ الاتجاهات الباطنية الغالية التي ينتهي مسعاها إلى رفع الإنسان إلى مستوى الألوهية - لمناشئ مختلفة -، واستلهمت في ذلك تنظيرات في العقائد الشركية قبل الإسلام، ولا سيما المسيحية - التي هي في أصلها موضع إقرار في القرآن الكريم - فيما ذهبت إليه من التثليث، هذه الاتجاهات سلكت مسلك التأويل المتكلف الواهن، وبرّرت أنحاء من الشرك وأخواته في الإسلام، كان منها اعتقاد قيادات النصيرية بضرب من التثليث في شأن الإله - وفق مصادرها التي انتشرت في العصر الأخير -، ولم تسلم البسملة عن التأويل في هذه الاتجاهات، حيث ذكر في مصادرها أنّ الكلمات الثلاثة المعبرة عن الإله في البسملة (الله، الرحمن، الرحيم) تعبر في الحقيقة عن ثلاثة أشياء منطلقة في ذلك من جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من أهل بيته (عليهم السلام) مصداقاً للأسماء الحسنى لله سبحانه، وهذه الأفكار فضلاً عن وهنها الواضح فكرياً وعقلياً مخالف للمداليل البديهة ولنصوص الدين، كما تخالف المعطيات التاريخية الواضحة عن أجواء نزول القرآن الكريم ومخاطبيه ومجريات السيرة النبوية، إلا أنّ

(١) المنجد: ٣٥٢-٣٥٣، مادة سما.

هؤلاء الغلاة يعتمدون على مخيلة واهمة لا يُراعى فيها أدنى مقاييس العقل السليم ومقتضيات ثوابت التاريخ واللغة فهي تبتني مسبقاً على الإيمان بأمور حيكت على أساس الخيال والوهم والتقليد، فتحمل ذلك على النص تحميلاً.

وفي ضوء ما تقدم نشير إلى أنّ البسملة والتسمية في بداية الكتاب - كما تقدم - لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى، ولكن من الجائز للإنسان أن يبدأ بعض الأفعال الاعتيادية أو غيرها من دون بسملة ويأتي بها، نعم، إن بدأ بشيء على سبيل التعظيم فليكن هو الله سبحانه وتعالى ولا يكون غير غيره حتى وإن كان من الذوات المثلى.

وينبغي الانتباه هنا إلى أمور:

١- إنّ الآداب في الدين ومنها العبادات أمور توقيفية^(١) ومبنية على اعتبارات فطرية ملائمة، ويعرف الإنسان المتفقه في الدين من لحن القرآن الكريم وسائر النصوص الدينية أنّ موقع الابتداء في القول والفعل هو موقع يليق بالله سبحانه وتعالى، وقد شرحنا مغزى هذا الأمر في ضوء ملاحن القرآن الكريم من قبل، وعليه فلا ينبغي لأهل الإيمان ولا سيما أهل العلم منهم استحداث أدب مختلف بما لم يرد في النصوص توسعاً في الأدب مع أولياء الله سبحانه من الأنبياء وغيرهم في موارد الأدب المنصوص في شأن الله سبحانه^(٢).

(١) ولذلك شرح موكول إلى محله.

(٢) وليس ما يصدر أحياناً من المؤمنين من ذكر الإمام علي (عليه السلام) عند القيام من هذا الباب، بل هو لاستلهاام القوة بذكره، حيث عرف بالفتوة، وذلك أمر معروف.

٢- إنَّ أدب البسملة والتسمية ينطوي على أمرين:

أحدهما: استحباب الابتداء باسم الله وهو أدب يتأكد في الأقوال التي هي ذات مضامين دينية كالخطب الدينية والكتب الدينية.

وثانيهما: عدم الابتداء باسمٍ غير الله سبحانه، وهذا قد يكون بمنظور ما أكد من الأوّل، فقد يتكلم المرء بكلام متعارف في مجلس، ولا يبدأ ببسملة أو تسمية، لأنه يجده أمراً متكلفاً مثلاً، ولكنه لا ينبغي له أن يبدأ باسم غير الله سبحانه على وجه البسملة، ولا سيما بعد تقرر أدب البسملة في الدين.

ويتأكد ذلك في شأن من يعظم في الدين كالأنبياء (عليهم السلام) بمعنى أنه ينبغي الحذر عن الابتداء باسمهم بدلاً عن اسم الله سبحانه، لأنه إن أريد تعظيم أحد تعظيماً دينياً بالابتداء باسمه فالأحرى الابتداء باسم الله سبحانه وتعالى. فمن المهم أن لا يُحدث المرء أدباً مختلفاً عن الآداب المقررة، فإن بدأ بشيء على سبيل التعظيم فليكن الابتداء باسم الله سبحانه وتعالى.

٣- إنَّ كون البسملة أدباً توحيدياً لا يليق بغير الله سبحانه لا يعني أنَّ مَنْ بدأ باسم غير الله سبحانه لا على سبيل الألوهية، بل بضرب من التعظيم فقد أشرك بالله سبحانه.

بيان ذلك: أنَّ الأمور التوحيدية في الدين على ضروب ثلاثة:

الأوّل: ما يوجب الإخلال به انتقاض التوحيد، كما هو الحال في إثبات مقومات معنى الألوهية لغير الله سبحانه كما كان يعتقد به المشركون في شأن غير الله سبحانه من الأصنام، فإنَّ ذلك يعني الاعتقاد بألوهية غيره سبحانه معه.

الثاني: ما يستلزم انتقاض التوحيد حقيقة بالتدقيق النظري، لكن قد لا يكون المخطئ متنبهاً إلى هذا اللازم الخاطئ لكلامه وهو تعدد الإله، فهو يعتقد بوحدة الإله فعلاً، وإنما بنى على الفكرة الخاطئة لا لأجل إثبات تعدد الآلهة، بل كنوع من التحليل والرأي في مباحث ذات علاقة بالإله، ولأجل ذلك قيل في علم الكلام إنه لا يجوز تكفير صاحب مقالة على أساس أن لازمها الكفر إذا لم يكن هو ملتفتاً إلى هذا اللازم ومقرراً بالتوحيد، و(ما يستلزم الكفر لا يكون كفراً).

الثالث: آداب ملائمة مع التوحيد، ومنها على المشهور السجود بوضع الجبهة على الأرض، فهذه الآداب حتى وإن كانت واجبة شرعاً ولا يجوز الإتيان بها لغير الله، لكن فعلها لغير الله سبحانه لن يوقع الفاعل في الشرك، فليست ممارسة الفعل الذي يليق بالله سبحانه في حق غيره من غير تأليه غيره من الشرك في الألوهية في شيء، ولكنه أمر غير حكيم ولا لائق، بل هو مجافٍ لمقتضيات الأدب والخضوع للملائم لله سبحانه، وكم من موقف يصدر من الإنسان يذكر فيها الآخرين مع أن الله سبحانه أولى بالذكر فلا يخرج بذلك عن حدّ الإيمان، وهذا أمر واضح لأهل الفقه في الدين، نعم بعض الجاهلين يمكن أن يبادر إلى تسمية كل ذلك بالشرك ويُخرج الشخص عن الإسلام والدين.

فالمغالاة بتوسيم الظواهر بالشرك من أفعال غير المتفقهين حق التفقه في الدين.

إنّ التفقه في الدين يوضح بشكل بديهي أنه قد يكون هناك لياقات وآداب من شأنها أن تختص بالإله ومَن فعلها مع غير الإله العظيم (تعالى شأنه) فقد فعل فعلاً

لاغياً وأدباً متكلفاً وخالف الأدب مع الله سبحانه وتعالى، ولكن ليس في هذا ما يضاد التوحيد في الألوهية بتاتاً.

والبسملة هي أدب توحيدي، فهي تندرج في الضرب الثالث فمن بدأ باسم غير اسم الله سبحانه لا على وجه الألوهية، بل على سبيل ضرب من الأدب غير اللائق بالبيان المتقدم من غير تأليه، فهذا لا يخرج عن حد الإيمان، بل غايته أنه أمر غير ملائم ولا حكيم.